الأداء المسرحي كوسيلة للاندماج، هذه تجربة رائدة في هولندا.

قامت مدينة هوخفين بهذه التجربة، وذهبت إلى هناك لكي أشاهدها بأم عيني. ومن جملة ما حدث: تعلم اللغة وتلاشي الأحكام المسبقة وخلق التواصل. "كلنا سعداء بذلك جداً".

كيف نجح مسرح بمساعدة 22 من السوريين في الاندماج في هوخفين

Gastcorrespondent Nieuw in Nederland

السيدة خرتا ريمرسما

أثناء العرض التجريبي لـ: "وكأننا في بيتنا في هوخفين".

التقط كل الصور في هذه المقالة السيد هانس برَكّه لـ: "المراسل".

تجلس مجموعة من السوريين إلى طاولة المشروبات (البار) في مبنى مصنع مهجور في مدينة هوخفين بمقاطعة درنته، يخرج أحدهم بين الحين والآخر ليدخن سيجارة بينما يحتسي الآخرون القهوة. عندما يُفتح الباب تهب ريح قارسة مُحمّلةً برائحة دخان السجائر.

على الرغم من ذلك فالجو في الداخل مفعم بدفء الود الذي تراه بادياً على وجوه الحاضرين. فالسوريون يضحكون ويأكلون البيبرنوت (كعكات هولندية خاصة بعيد القديس نيكولاس) ويتحدثون بأنهم سيفتقدون هذه الأجواء بشدة. فهم لم يعتقدوا ذلك من قبل مطلقا، ولكنهم سيشتاقون إلى هذه الأجواء حقاً.

ظهيرة اليوم سيقدم العرض التجريبي لـ: "وكأننا في بيتنا في هوخفين". هذا عرض مسرحي يؤديه اثنان وعشرون سورياً: سبعة عشر رجلاً وخمسة نساء، صار لهم يسكنون في هولندا ما بين السنة والسنتين. يتبع العرض التجريبي ثلاثة عروض، ويكون آخرها العرض الختامي لـ "وكأننا في بيتنا في هوخفين"، وسيكون العرض الختامي في بهو هذا المصنع المحبب. عندما بدأوا قبل شهرين ونصف بترددهم الأسبوعي إلى هذا المبنى لم يكونوا يعرفون مطلقا بأنهم سيشتركون في أداء عمل مسرحي. فقد حصلوا على رسالة من بلدية هوخفين لم يفهموها جيدا بسبب عدم إتقانهم اللغة الهولندية. كانوا يعتقدون أنهم سيشاركون في بناء (خشبة) مسرح أو رسم ديكور، أو القيام بعمل يدوي على أي حال.

ولكن تبين لاحقاً بأن على السوريين أنفسَهم أن يقوموا بأداء عمل مسرحي، وحينئذ أصبح مشروع العرض المسرحي "وكأننا في بيتنا في هوخفين" مشروعاً مميزاً. فاستخدام الأداء المسرحي كوسيلة للاندماج هو تجربة رائدة في هولندا. كما أن الإجابة عن السؤال فيما إذا كان السوريون بسبب هذا العرض المسرحي يشعرون فعلاً أنهم في بيتهم في هوخفين ليست صعبةً، فالجو السائد حول البار يعطيك الجواب بكل وضوح.

في المساء سيكون الجو مفعماً بالحرارة أكثر. فبطاقات العرض قد بيعت كلها وصالة العرض تهزج بأصوات كثير من المتشوقين: مئة من سكان هوخفين إضافة إلى السوريين وعوائلهم.

"أؤكّد لك أننا جميعا سعداء بهذه المشاركة"، قال أنس الحلاق عازف القيثارة الذي شارك بأداء العرض. بعد هذه الأمسية هناك ثلاث أمسيات بيعت بطاقاتها بالكامل. وكل الأمسيات تنتهي بلقاء سوري - درنتي كبير يجعلك تسأل نفسك: أليس عرض مسرحي كهذا هو أكثر فاعلية من أيّ كتاب عن الاندماج؟!

1- أنس. 2- رامي شمس الدين.

ما تفسير هذا النجاح؟

كيف استطاع مشروع كهذا أن يحقق كل هذا الإنجاز؟ وهو مشروع لو اطلعت عليه من الناحية النظرية البحتة لرأيته شبيها بعمل خيري بنسبة منخفضة من المهنية، لهذا أمضيت ظهيرة ومساء يوم الاستعراض التجريبي الأخير الذي سبق العرض الأول في بهو المصنع وفهمت أثناء ذلك ما حدث.

كيف استطاع مشروع كهذا أن يحقق كل هذا الإنجاز؟

كان الجو رمادياً بلون المبنى الذي دخلته، مبنى من المباني مسبقة الصنع يقع في المنطقة الصناعية في الأحياء الخارجية لمدينة هوخفين. في الداخل كدت أصطدم برامي شمس الدين، مغني المجموعة الذي كان يسير على (بطناج) في دهاليز المبنى فوق سجاد متين جدا. هذا السجاد كان لمحل الأدوات المستعملة الذي كان هنا سابقاً.

مباشرة اختفت كل الرمادية. لقد حللت في مسرح حقيقي له صالة عرض كبيرة إلى جانبها مدرجات وفي الركن يوجد البار. كما يوجد هناك مطبخ، وغرف تستخدم كمكاتب وأخرى للنوم وفيها فرش هوائية.

إمكانية إضافية للاندماج

على تلك الفرش ينام الهولنديون الذين يساعدون السوريين في عرضهم. هم من جمعية "لودز 13" وهي جمعية من مقاطعة نورد هولاند (مقاطعة هولندية)، وكثيرا ما تقوم الجمعية بتنصيب مسارح في أماكن مختلفة. "نحن نفضل أن نؤدي عملنا في مبانٍ قديمة خاوية حيث نستطيع أن نجهزها كما نريد ونشعر فيها بالارتياح." قالت المشرفة الفنية إيفا فورتمان.

قامت السيدة فورتمان في السنوات الأربع الأخيرة بعدد كبير من العروض مع عدد من العاطلين من العمل في مقاطعة خرونينغن. كان الهدف مزدوجاً: إمتاع الجمهور من جهة ومنح الثقة بالنفس للممثلين من جهة أخرى. عندما طلبت مقاطعة درنته من السيدة فورتمان أن تقوم بالنشاط نفسه مع العاطلين عن العمل في مقاطعة درنته تواصلت مع بلدية هوخفين التي فضلت أن تقوم فورتمان بتنفيذ أنشطة مع اللاجئين.

يبلغ عدد سكان بلدية هوخفين 55.000 ساكن، وعليها أن تُسكن هذه السنة 140 لاجئاً ممن حصلوا على إقامة. وسرعان ما لاحظت بلدية هوخفين أن كثيرا من السوريين يريدون أن يثبتوا أنفسهم تجاه أرباب العمل وتجاه سكان المدينة. "هم يريدون أن يُروا الآخرين: نحن أناس طيبون. نحن لسنا إرهابيين"، قالت السيدة ميريزا ميرستيك موجهة العمل في البلدية.

كانت مهمة هذا المشروع - بإشراف لودز 13- أن يمنح السوريين هذه الفرصة. فجرت دعوتهم لكي يقوموا بالاشتراك طوعاً في هذه المبادرة التي صارت بمثابة إمكانية جديدة للاندماج، إضافة إلى برنامج الاندماج الذي يجب عليهم اتباعه أساساً. فاختارت البلدية عشرات من الحاصلين على الإقامة ممن كانوا قد قاموا بأعمال إبداعية في سورية. ولكن في هذا الإطار تم تفسير مفهوم الإبداع بأريحية. فتم إرسال الدعوة -التي فاتهم مغزاها الدقيق-إلى عازف كمان ورسام، ولكن أيضا إلى عامل بناء ونظّاراتي.

1- فراس .2- نانسي الحطاب .3- ماهر العقلة. 4- إفا فورتمان.

كيف كُسر الجمود؟

فالسوريون لم يريدوا مطلقا أن يقوموا بعمل مسرحي.

وهكذا وقف ما يزيد عن عشرين سوريا في أحد أيام أيلول الخريفية الجميلة أمام مبنى مهجور ينتظرون، بينما الشمس تلقي عليهم أشعتها الدافئة. داني هيرس دومينكوز رآهم واقفين يتكلمون مع بعضهم بعضا بشيء من الحرج لأنهم لم يسبق أن تعارفوا من قبل. داني هو مخرج ومنتج ولكن لودز 13 استقدمته هذه المرة لكي يكسر الجمود. "هذه احدى مهاراتي"، وأضاف: "ولكن هذه المرة لم تكن المهمة سهلة".

"في سورية كنت أعمل نادلاً والآن تطلبون مني أن أؤدي دورا مسرحيا؟!"

توجب على هيرس دومينكوز أن يتكلم بلغة الإشارة، وأضاف: "وأن أستخدم المرح، فلا يجب علينا أن نعمل من كل اختلاف ثقافي مأساة". على كل حال لم يتضح للسوريين أن المطلوب منهم هو القيام بعمل مسرحي إلا بعد أن أصبحوا داخل المبنى.

ما تبين بعدها أنهم بالكاد يعرفون المسرح. في سورية كانت هناك عروض كوميدية فقط، ولكنهم لم يذهبوا إليها قَط. أحدهم كان مغتاظاً وقال بانزعاج: "في سورية كنت أعمل نادلاً والآن تطلبون مني أن أؤدي دورا مسرحيا؟!". أحدهم رفض المتابعة، بينما فضل عدد من الآخرين المساعدة في أعمال المطبخ.

بقي الآخرون على مضض، ولكن هذا الحال لم يستغرق أكثر من يوم. ففي بداية الأمر كان هناك ما يكفي من الأعمال التي يجيدونها. فجهزوا المبنى بأشياء مستعملة وحضروا طعاماً. وفي تلك الفترة بدأوا التدريب، فكانوا يجتمعون خلالها مرتين في الأسبوع مع بعضهم بعضا، وكان الهدف أن تتم صياغة عمل مسرحي قبل نهاية شهر تشرين الثاني.

أثناء العرض التجريبي لـ: "وكأننا في بيتنا في هوخفين".

تلا ذلك: سوء تواصل وعدم تفَهّم

كان القصد أن تأتي أفكار العرض من السوريين أنفسهم، وأن يجسد العرض أفكارهم ومشاعرهم. ولكن هذا الطرح أدى إلى سوء فهم كبير لم يكن سببه الوحيد أن السوريين لا يجيدون اللغة الهولندية.

اعتقدت المشرفة الفنية إيفا فورتمان والمخرج مارتن سميت بأن العرض سيدور حول حياة السوريين في هولندا. فهم يسكنون هنا أليس كذلك؟ فلهذا سألا السوريين: ما حلمكم الأكبر؟

الجواب عن هذا السؤال كان الصمت المطبق. إيفا فورتمان ومارتن سميت استغربا أشد الاستغراب إلى أن قال لهم عازف القيثارة أنس الحلاق: "لا يمكن لك أن تسأل شخصاً على شاطئ البحر نجا لتوه من الغرق: ما حلمك الأكبر؟ نحن ما زلنا نخوض صراعا من أجل البقاء على قيد الحياة".

ذكر أنس الحلاق لي أنه ما زال إلى الآن يذكر إحدى الألعاب التي وجب عليهم أن يقوموا بها في البداية كمجموعة: أن يرمي بعضهم الكرة إلى بعض، ويصدروا صوتا ما في الوقت نفسه. عقّبَ قائلاً: "استغربنا هذه اللعبة بشدة". ولكنهم تابعوها. "التجارب الجديدة مفيدة في صقل الطبع، أليس كذلك؟".

1- وسيم عيون السود 2- نشأت حسين 3- مهند سراج 4- داني.

ماذا أراد أن يخبرنا السوريون

نقطة التحول بدأت عندما ذهبوا معاً إلى العرض المسرحي: "البلد الغريب" الذي قدمته الفرقة المسرحية "هِت هاوتن هاوس" في خرونينغن. كان عرضاً مسرحياً صامتاً يتحدث عن فتاة تريد أن تشق طريقها في بلد جديد لا تفهم منه شيئاً وكل شيء غريب عليها. وهنا

تحقّقَ الهدف. "هذا شيء يُفْهم" قال السوريون. عندها سألت إيفا فورتمان ومارتن سميت: هل تريدون شيئاً كهذا؟ "نعم" قالوا بدون تردد.

ولكن السوريين أرادوا أن يبدؤوا قصتهم من سورية، أرادوا أن يُروا كم كانت حياتهم هناك جميلة، كيف كان الزوجان يستيقظان في الصباح قبل أن يستيقظ الأطفال ويستمعان معا نصف ساعة إلى أغاني فيروز، تلك المطربة اللبنانية المحبوبة التي ذاع صيتها في كل أرجاء الوطن العربي.

أرادوا أن يُفهموا الهولنديين أنهم أُكرهوا على مغادرة بلدهم، كما أرادوا أن يخبروا الناس عن الحرب وعن نزوحهم وعن قدومهم إلى هولندا، هذا البلد الغريب عليهم تماما والذي لم يفهموه مطلقاً. "ليس عندنا هنا تواصل مع أحد! كيف يمكننا أن نتواصل مع الناس هنا؟". سؤال طرحه الجميع، وأضافوا: " نريد أن نكسر جدران العزلة، كيف يمكننا أن نفعل ذلك؟".

أثناء العرض التجريبي لـ: "وكأننا في بيتنا في هوخفين".

نعم، لقد كان عندهم فكرة ما الشيء الذي يكوّن هذا الجدار المجازي: إنها داعش. فهذا ما يسمعونه من التلفاز ومن الناس حولهم. "هاك، لا بُدّ أن السوريين ينتمون إلى داعش". كان جميع الاثنين وعشرين شخصاً بدون استثناء يشعرون بأن التواصل الطبيعي مع الهولنديين ليس ممكناً بسبب هذه المسألة، ولهذا سمعتهم يردّدون في مبنى المصنع في هوخفين أكثر من مرة: "نحن أناس مثلكم".

الهولنديون من لودز 13 بدؤوا يستوعبون أن العرض يجب ألا يكون مجرد عرض فقط، بل يجب أن يكون وسيلة لخلق التواصل أيضاً. لهذا قرروا أن يقوموا بعد العرض بتناول الطعام مع الجمهور: كسندويش الشاورما والحمص والسلطة والشاي والبقلاوة. كما عُلقت في المدخل أوراق قدّم السوريون فيها أنفسهم وكتبوا عليها أرقام هواتفهم عدة مرات بحيث بإمكانك أن تقطع إحداها لتأخذها معك.

بدأ العرض يكتمل شيئاً فشيئاً، أصبح العرض صامتاً، وكان هذا مفيداً جدا وساعد الممثلين على الانطلاق والتحرر من قيد اللغة. فباستثناء مقطع واحد لم تكن هناك حاجة لكي يقيدوا أنفسهم بتكلم الهولندية الركيكة. كانت مهمتهم هي تجسيد صور حياتية ونقلها إلى المشاهد فقط. وبهذا الخصوص قال مارتن سميت: "إن كنت في بداية المشهد سمعت أصوات فناجين تقع وفي نهايته رأيت السوريين يقومون بترتيب تلك الفناجين، فماذا تستطيع أن تضيف إلى ذلك؟".

أثناء العرض التجريبي لـ: "وكأننا في بيتنا في هوخفين".

الممثلون يجيدون الهولندية بشكل أفضل

بدأ التواصل بين السوريين وسكان هوخفين حتى قبل أن يبدأ العرض التجريبي. فقد أدّى السوريون عرضين جزئيين مع قسم من الجمهور اختاره السوريون أنفسهم. كما كانت إحدى النتائج الأخرى التي نجمت عن شهرين ونصف من العمل المسرحي هي أن اللغة الهولندية للممثلين تحسنت تحسناً ملحوظا جدا. فقد كان فريق لودز 13 يتكلم معهم باللغة الهولندية حصراً.

تكلم بعضهم مع بعض كثيرا وكان لهذا تأثير إيجابي في الهولنديين. ففي البداية كان الهولنديون يتكلمون فيما بينهم عن "اللاجئين"، وبعد مدة بدؤوا يتكلمون عن "المقيمين" وبعدها عن "السوريين" ثمَّ عن "الممثلين".

عندئذ بدأوا ينادون كل ممثل باسمه ويعرفون وجهه. " لقد أصبحوا الآن أفراداً، لم يعد ممكنا أن أتكلم عنهم كمجموعة"، قالت المشرفة الفنية إيفا فورتمان.

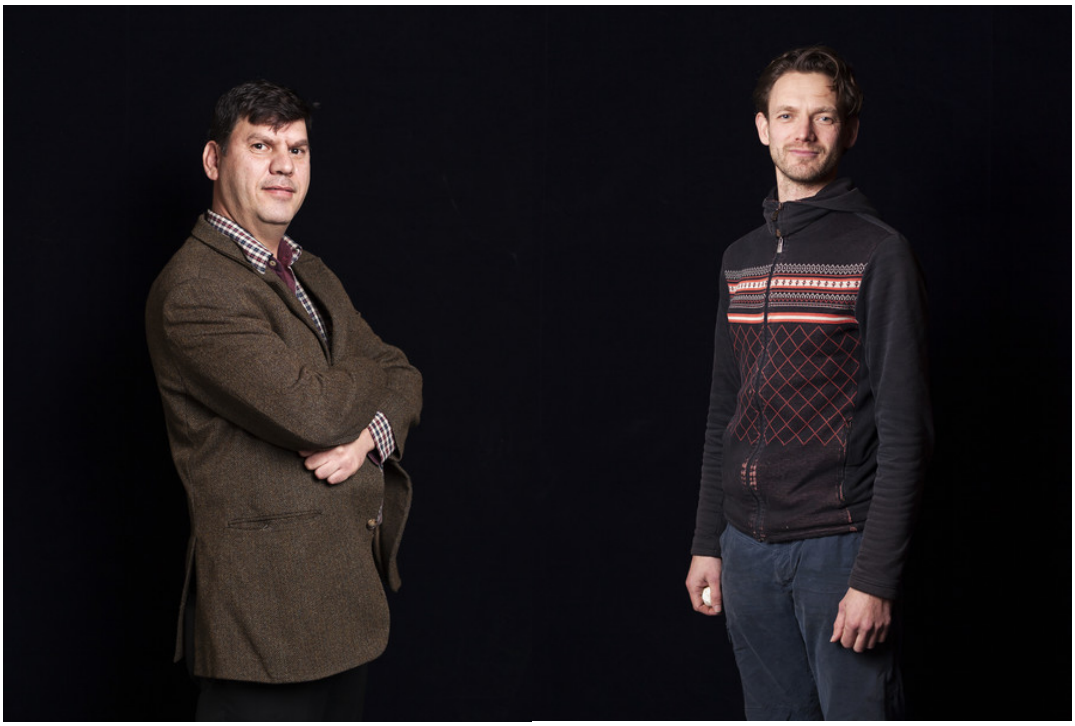

1- متاح دعبول 2- مارتن سمت

العمل المسرحي له تأثير في تحسن الحالة

بعد العرض التجريبي تلقت السيدة إيفا فورتمان خبراً بأن مسرح "تامبور" في هوخفين يود أن يبرمج العرض في الرابع عشر والخامس عشر من شهر كانون الثاني. "حبذا أن تكون هذه بداية لجولة عرض مسرحي في كل هولندا"، عقبت السيدة إيفا فورتمان بعد سماعها هذا الخبر.

كان وقع الخبر جميلاً على آذان السوريين الجالسين إلى البار الذي تعتليه البيبرنوتن (كعكات هولندية خاصة بعيد القديس نيكولاس) . فكما ذكرنا سابقاً: هم سيشتاقون إلى أداء العمل المسرحي.

بعد آخر عرض تجريبي ظهيرةَ اليوم شعر السوريون فعلاً بالانطلاق. وقد لفت هذا انتباه النساء اللواتي يشاركن في هذا العرض. رندا كندي مثلاً قالت بأن تصرفات رجالهم أصبحت أقلّ جديةً مقارنة بتصرفاتهم عندما كانوا في سورية. "صاروا يتصرفون وكأنهم أطفال"، قالت وهي تقهقه.

هم سيشتاقون إلى أداء العمل المسرحي

هي محقة، فهؤلاء الناس، وكما تبين من قصصهم، تعرضوا لفظائع، فمنهم من فقد طفلاً ومنهم مَن طفله محتجز في السجن في سورية، ومنهم من تعرض لتهديد ووُجّه رشاش صوب رأسه، ومنهم من تعرض للتنكيل والتعذيب. ولكنهم هنا في مبنى هذا المصنع في هوخفين، يضحكون ويمشون بمرح وحيوية وهم يضعون اللمسات الأخيرة على الديكور أو على موائد الطعام.

على الرغم من أن ذلك لم يكن الهدف ولكن كان للعرض "وكأننا في بيتنا في هوخفين" تأثير علاجي في الممثلين. فأحد السوريين رفض أن يمثل كيف ركبَ القارب المطاطي الذي كان سيوصله إلى الطرف الآخر من البحر المتوسط. "قبل نصف سنة من الآن فقط ركبت مثل هذا القارب حقاً، أطفالي حتى الآن لا ينامون جيدا جرّاء ما حدث" وأضاف: "من الأفضل لي ألا أقوم بهذا الدور". ولكنه بعد أربع عروض تدريبية قام بذلك الدور.

1- رناته دكتور 2- محمد خليل 3- فراس 4- نسرين الرشيد أبا زيد.

بدأ خلق التواصل مع سكان هوخفين

هذا رامي شمس الدين وهو يتدرب على الأغاني التي سيغنيها أثناء العرض. بعض هذه الأغاني عمرها ألف سنة وأصلها من مدينة حلب، مسقط رأسه. بعد مشهد عبور القارب

سيغني أغنية عن البلد الذي وجب عليهم جميعاً أن يغادروه. قال لي: "عندما غنيت هذه الأغنية أول مرة انهمرت دموعي".

أثناء العرض التجريبي لـ: "وكأننا في بيتنا في هوخفين"

وبدأ العرض واستطاع أن يسيطر على نفسه ويحبس دموعه ولكن عيون الكثير من الحضور من سكان هوخفين اغرورقت بدون بكاء. أمام المدرجات بالضبط كان هناك باب ذو مصراعين مغلقين ضغط السوريون على مسكة الباب من الطرف الخلفي في محاولة يائسة منهم لفتح ذلك الباب ولكنه بقي مغلقاً. وفي تلك الأثناء سُمع صوت خيرت فيلدرز وهو يصرخ بالميكرفون بأن ثلاثة أرباع المسلمين يريدون تطبيق أحكام الشريعة.

أزيلت الأبواب وبدأت الرواية تسرد نفسها: عن الحياة في سورية وعن النزوح وعن الأحكام المسبقة في هولندا. "شكرا هوخفين"، صاح الممثل خليل قادر. بينما كانت خلفه لوحة ضوئية مكتوب عليها: "البلد ممتلئ ولا يتسع المزيد، أنيكك، ارجع حيث أتيت". كان الإحباط واضحاً على وجهه بسبب هذه العبارات.

هذه الأمور على بساطتها لها تأثير كبير. في نهاية العرض أُرجِعَ الباب أمام المدرجات وفُتح على مصراعيه ودخله السوريون ومشوا تجاه الجمهور ورافقوهم يداً بيد إلى مائدة الطعام.

سمعت السيدة ساسكيا أوست تقول وهي تجلس إلى طاولة وأمامها صحن من السلطة: "ربما لا يعرف السوريون كيف يمكن لهم أن يتواصلوا مع سكان هوخفين والعكس صحيح. كما أرفقت السيدة يانكة فاير التي كانت تجلس إلى الطاولة نفسها: "نحن هنا في مقاطعة درنته نتخوف قليلاً من الأشياء الغريبة علينا". أضافت أيضاً أنها سمعت عن لاجئ سوري حصل على باقة ورد من جيرانه فعقبت قائلةً: "قد تكون المسألة أبسط مما نتصور".

بعد الطعام امتلأت خشبة المسرح وصار الحضور سوريون وهولنديون يرقصون معا على الأغاني التقليدية التي غناها رامي شمس الدين من حلب، بينما اقْتُطِفت في المدخل أول أرقام هواتف السوريين.

1- يوسف الدربي 2- قيس خاسكي 3- عامر أنبار 4- خليل قادر.

هذه المقالة هي جزء من المبادرة: جديد في هولندا. لم نكن لنتمكن من تلك المبادرة بدون المساهمة المادية التي قدمتها جمعية: Stichting Dioraphte .

إقرأ المزيد عن هذا المشروع في موقع لودز 13

أنظر أفلام المشروع في صفحة المشروع في فيس بوك:

https://www.facebook.com/pg/ThuisinHoogeveen/videos/

استمع إلى موسيقى فيروز

إقرأ هنا المزيد عن الاتصالات مع الهولنديين

لزيارة موقع المؤسسة ديوراقتة